المكتبة الصوفية

المدارس الصوفية المغربية و الأندلسية

في القرن السادس الهجري

الدكتور عبد السلام غريني

دار الرشاد الحديثة

عليها ليزداد ابتعاداً عن الدين جملة وبالأحرى عن التصوف.

وبالفعل هناك من يرى أن التصوف ليس نتيجة معاكسة لحياة مادية باذخة. وإنما نتيجة آلية لغيابها. بمعنى أنه يزدهر في التربة التي لا تعرف إغراءات مادية ولا أحابيل شهوانية! عسير أمر هذا الذي نسميه بالتصوف. يتفلت من بين أيدينا كلما أردنا أن نشد عليه لندخله في قالب حتمي قائم على الأسباب والمسببات. مرة يبدو لنا مزدهراً في البيئة الغنية المتفسخة. ومرة يظهر نشطاً في الوسط المتقشف البسيط، وأحياناً يتجلى ظاهرة شعبية لا صلة له بالثقافة وأهلها، وتارة يجذب إليه عمالقة الفكر وأرباب النظر!

فلندع هذه الإشكالية مؤقتاً ولننصت إلى ما تتحفنا به المصادر الأندلسية من أخبار أهل الزهد والانقطاع والتبتل.

مرحلة الزهد

تزامن الفتح الإسلامي للأندلس، في نهاية القرن الأول للهجرة وبداية الثاني، مع تبلور المنحى الصوفي في الإسلام بالمشرق، على أيدي أعلام أمثال الحسن البصري وزين العابدين علي بن الحسين وهرم بن حيان وأبي حازم سلمة بن دينار، وعبد الواحد ابن زيد، وعتبة الغلام وغيرهم.

وإذا كانت غالبية العساكر الإسلامية التي فتحت إقليم الأندلس تتشكل من المسلمين الأفارقة فإن بعض الكتائب الأخرى قد قدمت من المشرق لأداء رسالة الجهاد. ومن الجائز افتراض أن بعضها كان على علم ووعي تام بتعاليم المتصوفة المشارقة إن استبعدنا احتمال اعتناق بعضهم لمبادئها. كما كان اجتهاد بعض التابعين ممن دخل الأندلس في العبادات يزرع بذور اتجاه أهل الزهد والانقطاع بها.

ومصادر تاريخ الأندلس تتحدث عن كتلة بشرية هامة هاجرت من الشام إلى الأندلس، تقدر بحوالي عشرة آلاف رجل، وضمنها ولا شك بعض العُبّاد. ولكن الشام كان يومئذ أقل نشاطاً في الجانب الصوفي من الإقليم الآخر الذي يحاذيه: العراق. مع أن لأهل الشام زهادهم وعبادهم. فالعراق يعتبر تربة صالحة في تلك الآونة لكل التجارب والممارسات، عقلية ونقلية، فعلية وانفعالية، حضارية وسياسية.

وقد انتهى بعضهم[1] إلى أن الازدواجية اللغوية ووشائج الصلات العائلية المتبقية بين الأندلسيين ذوي الديانات المختلفة، قد احتفظت لدى المولدين، معتنقي الإسلام الجدد من الإسبانيين، ولدى المستعربين، الإسبان المسيحيين الناطقين بالعربية بالشعور بالإخاء والتكافل والتآزر ضداً على سواهما. خصوصاً تعاونهما ضد الحكم الأموي أحياناً. ولن يقول هذا إلا من يجهل مكانة الانتماء الديني عند المسلم، ثم مكانة اللغة العربية لديه.

ومن النتائج التي تبعث على الضحك والسخرية قول هنري تيراس: أن الإسلام كله نشأ في بلد يغلب فيه نمط عيش البدو الرحل ولكنه أبدع من قبل مدني ومن أجل مدنيين ولكي يعاش الإسلام بكل أبعاده يفترض وجود مدن[2]!!

فهو ليس ديناً أوحى الله به إلى رسول مهمته البيان والتبليغ، وإنما هو من اختراع وابتكار رجل كان يسكن في مدينة من المدن. وأن تطبيق مبادىء ذلك النسيج المخترع يتوقف على وجود المدن!! فلم تكن بوادي العالم الإسلامي وما تطفح به من مدارس وزوايا وصلحاء وعلماء كافية لإزالة هذا الوهم من ذهن هذا المتعالم.

مرحلة تكوّن الطوائف

كانت الخطوة الموالية لانتشار الزهاد في الأندلس، في طريق البناء الصوفي، هي تكتل هؤلاء المنقطعين للعبادة في تجمعات، تكثر أعدادها أو تقل ولكنها تلتقي جميعاً في تكوين شبه مدارس تتمحور حول شخصية قوية في المجاهدات والعبادات تعمل على التأثير في غيرها من الناس.

وفعلاً بعد أن كان الحديث عن هذا الزاهد أو ذاك العابد «المجاب الدعوة» بدأ النظر يتجه مع نهاية القرن الثالث للهجرة وبداية الرابع إلى هذه الطرق شبه صوفية التي أخذت مواقعها في المجتمع الأندلسي.

ومن القرائن الأولى على بداية هذه الظاهرة ما يرد أحياناً في ترجمة بعض الفضلاء

---

(1) Henri Terrasse: L'Islam d'Espagne, une rencontre entre: l'orient et l'occident. (dans Melanges). Ed. pres. Univ. de france.

(2) م.س.

من أوائل المدارس الصوفية بالأندلس، بشهادة الباحثين المجدين، مدرسة ابن مسرة. وقد كان للراهب الإسباني المستشرق «أثين بلاسيوس» الفضل الكبير في إظهار ملامح هذه المدرسة وقسمات وجه صاحبها والتعريف بأكثر آرائها[1].

وقد انتهى إلى أنها أول مدرسة صوفية بالأندلس. ومع ذلك فإن مدرسة ابن مسرة تكون أول مدرسة صوفية بالأندلس في نظر المستشرقين كهنري كوربان وأثين بلاسيوس وبمقياس أثين بلاسيوس للمدرسة. فإذا نازعناهما في ذلك باعتبار تواجد العبّاد ذوي المنحى «الباطني» في تربة الأندلس قبل ابن مسرة فلن تكون مدرسة هذا الأخير هي الأولى. وإذا لم نسلم لأثين بلاسيوس ما يعتبره تصوفاً وما لا يعتبره كذلك تهاوى كذلك هذا الإفتراض الذي بناه حول هذه المدرسة.

فمدرسة ابن مسرة إذن أول مدرسة للتصوف الأندلسي في نظر هذا المستشرق وأمثاله وبمعياره للمدرسة، وبمقياسه في التصوف.

ودون أن نزج بأنفسنا في نقاش متمحل ومتعسف لأراء أثين بلاسيوس يمكن القول أن ابن مسرة فعلاً خطا بالتصوف في الأندلس خطوة واضحة تجلت في إظهار الخطاب الصوفي علناً وتعميمه في المريدين والعمل على إذاعته بالكتابة وبشتى الوسائل.

ولكن أثين بلاسيوس، يتحامل على الإسلام عموماً من خلال طرحه للمدرسة المسرية. فهو يرى أن تلك النباهة الفلسفية وذلك الإشراق الصوفي اللذين يلمسان في ابن مسرة يرجعان إلى أصله الإسباني وإلى تشبعه اللاواعي بالنحل المسيحية وبالأفلاطونية الحديثة! «فالشعب العربي قبل الدعوة الإسلامية – في نظره – كان يعيش مستسلماً لحياة التنقل والرعي أو التجارة وينفر من الاهتمامات المتافيزيقية»[2] أي أن البيئة التي كان من المفترض أن تكون مساعدة على التأمل والتفكر عند الإنسان العربي، تحولت عند بلاسيوس إلى عائق يحول بينه وبين النظر الفلسفي! كما أن الرسالة التي جاء بها محمد ﷺ تبدو لهذا المستشرق محتواها فقير جداً، وجانبها الفلسفي، سواء من

(1) Aben Massara y su escuela
Origenes de la filosofia Hispaano-Musulmana. Asin Palacicos. Madrid 1914

فهرس المواد

كلمة الناشر 3
مقدمة 6
إشكاليات منهجية 11
خطة الدراسة 17
الباب الأول، الجذور الصوفية في الغرب المسلم 19
الفصل الأول: الفكر الصوفي في الأندلس من الجذور إلى نهاية القرن الخامس 20
شرقية الإسلام وشروق التصوف 21
مرحلة الزهد 24
زهاد في خضم الأحداث 28
يحيى بن يحيى والتصوف 30
زهد بائس ودين كامل 31
زهاد في مهمة المشورة والإغاثة 33
تأثير إفريقية 36
وبالقيروان مسجد السبت 38
نتاج صقلي 41
استقطاب في الديار المقدسة 43
آراء استشراقية 47
مرحلة تكون الطوائف 49
الفصل الثاني: الجماعة المسرية 54
بين ابن مسرة وامباذوقليس 56
فقيه نحرير أم سياسي ماكر 58
تصوف في التربية واعتزال في العقيدة ... 64
تحفظ بخصوص علم الكلام 65
عن الإعتزال بالغرب الإسلامي 68
الإعتزال بالأندلس 71
عن الأتباع ومقالاتهم الشنيعة 75
علماء وصوفية يتصدون للمسرية 78
نكبة المسريين 80
رأي بعض الصوفية في المسرية 81
الفصل الثالث: الجماعية الإلبيرية 84
إلبيرة بؤرة الزهد 85
تشابه مع ابن أبي زمنين 88
الجماعة المعوذية 92
صوفية لا تجمعهم رابطة 94
شعر بليغ في الزهد 98
ابن حزم والتصوف 100

فارضيات أندلسية 103
رواج في الكتب 106
كرامات أم أسطورات 112
الباب الثاني: المدارس الصوفية الأندلسية
في القرن السادس 114
الفصل الرابع: المدرسة البرجانية 115
المدرسة البرجانية 116
لغوي بعيد عن قحية الظاهرية 117
قرينان أم مريد ومرب 119
التشريح الروحاني 122
الإمام المبين والحق المخلوق به 124
جهنم في شكل بقرة 126
تنبؤات في التفسير 128
قلة في الأتباع 130
عقاب يفوق التهمة 133
فيلسوفي الإشارة 135
الفصل الخامس: المدرسة العريفية 137
ابن أرشد من أبيه 138
مع البرجي والصدفي 139
توجيهات ملتهبة 140
ابن برال يلبسه الخرقة 142
فن إقراء الأطفال 147
بحث مستمر عن عالم الآخرة 148
تقدير خاص لابن برجان 151
الزهد ليمن بن رزق 154
أسماء مغمورة 156
أسماء مشهورة 160
تخريج الشيوخ 163
آثار مندرسة 165
ابتهال عريفي 168
في الفقه والورع 168
التوبة عن التوبة 170
تفسيرات إشارية 172
مذاهب ملتبسة 173
بين التدريب والتقريب 175
تصعيد في محاسن المجالس 177
أدبيات بليغة 181
أصداء في مجامع الصوفية 185
المرابطون والتصوف 187
نكبة ابن العريف 190
الفصل السادس: المرحلة الغزالية 195
نداء الأشجار 196
من أقران أبي مدين 198
هل من لقاء مع ابن عربي 201
أربعون ألف مريد 202
الفصل السابع: المدرسة المريدية 205
تعاطف مع جماعة المرية 206
عناية خاصة بكتب الغلاة 208
اتحادي يقتبس النور من القدمين 210
تمييز الأسماء 212
بعث بالنكاح والتناسل 214
استخدام الرقم والحرف للكهانة 215

ابن قسي والمهدوية 216
حركة ذات مالية وافرة 218
ثورة المريدين 219
تقييم لاحق 223
الفصل الثامن: المدرسة المجاهدية 225
تشبث ابن المجاهد بالمالكية 226
حياد كبير تجاه السلطة 227
الضروري يفوت عليه الجمعة 230
نياتيون في مدرسة محاسبية 231
شيخ عارف أو صوفي واقف 234
فقيه يتمايل نشوان 235
المرتلي بين سمت الزهاد ولغو الأدباء ... 237
ابن قسوم يهاجم ابن سينا 241
إشبيليون لهم صدى بمراكش 243
الباب الثالث: المدارس الصوفية المغربية في القرن السادس 245
الفصل التاسع: الجذور الصوفية بالمغرب 246
بداية غابرة 247
كتب ورباطات وصلحاء 248
ادعاء استشراقي 250
ملاحظات عامة 252
الفصل العاشر: المدرسة الغالبية 255
محدث يتخلى عن تركة أبيه 256
مجتهد في الثمانين من العمر 258
وسط شبكة صوفية 259
حميم تبث إليه الشكوى 260
تصدع بجماعة قرطبة 262
إغراء مدينة شلب 263
فتنة محاذية 265
استقرار ونضج بالمغرب 266
مؤلفات غائبة 267
مريدون نبغاء في العلم 268
الفصل الحادي عشر: المدرسة الشعيبية
الأمغارية 270
احترام الشيخ وبنيه 271
تعضيد بني زيري لبعض الصلحاء 272
المرابطون يؤيدون نوعاً من التصوف ... 273
السلطة تقيم مهرجاناً للصوفية 274
تقدير خاص من طرف العلماء 275
اهتمام بعلم الكلام 277
تعذيب إرادي للنفس واتهام لها 279
الطائفة الشعيبية 280
الفصل الثاني عشر: المدرسة اليعزاوية .. 284
سياحة طويلة واقتصار على النبات 285
شيخ يفضح عيوب زواره 286
صيت بسبتة وفاس 287
معالم في الطريق 288
توقير فقهي 290
صوفي مسالم يسجن خطأ 291
اعتراف حذر من قبل الموحدين 293
التباس بخصوص الآثار 295
أمي يطأطىء له العلماء 296

خرق في العوائد ونقص في المعرفة 298
الفصل الثالث عشر: المدرسة الحرزية .. 300
بيت معروف بإجابة الدعاء 301
ابن حرزهم يصاب ببركة ابن النحوي ... 302
نبوغ في علم الأصول 302
مجالس للعلم والتذكير 303
استعداد للتلقي الصوفي 304
سند غزالي 305
تردد في قضية الإحياء 307
انتصار لغزالي الأندلس 308
رائد الملامتية 310
متصوف بالرغم من مغريات فاس 312
غلو في الرؤى 313
أساتيذ متداخلة 314
الفصل الرابع عشر: المدرسة المدينية ... 320
أندلسي يتعلم الوضوء بفاس 321
آفة فصل العلم عن العمل 322
روافد متعددة 323
هل من صلة صوفية بين المرية وسجلماسة 325
نسبة قادرية في المدينية 326
بجاية تعين على طلب الحلال 328
ألف مريد ذوو كرامات 329
انعدام الصلة بالمشيشية 331
من شيخ الشيوخ إلى الشيخ الأكبر 332
روابط أندلسية 333
المدينية في مصر 335
ثلاثة آلاف سنة في الضيافة 336
في خاصية التوكل 337
سورة كل صورة سدرة منتهاها 339
عوام وخواص في الورع 341
انقباض بالمراقبة وبسط بالعلم 341
مرجع في الإفتاء 343
الغرور في إرشاد الناس قبل التحقق 345
نحو الوحدة المطلقة 346
حلقة في سلسلة الحكم 348
توهيم صوتي 350
الفصل الخامس عشر: المدرسة السبتية .. 352
أستاذ مبهم 353
كرامات في طريق إلى مراكش 355
شبه مع الشيوخ 356
برنامج تطبيقي 356
عن مبدإ السخاء 357
ظروف اقتصادية شديدة 359
انتحال أم أصالة 359
هيام بالتأويل 361
نسك فقهي 363
مع ابن رشد وابن عربي 365
ومع الخلفاء الموحدين 367
علاقة حميمة بالمنصور 368
الفصل السادس عشر: المدرسة الحاتمية . 371
متعدد الاختصاص لا ينفذ الحديث عنه .. 372
أسرة ذات ميولات روحية 374

بين رائد الفكر ورائد الفيض 375
تغزل بمقدار 378
نصيحة للفخر الرازي 379
حشد متنوع من الأساتذة 380
عاطفة خاصة مع المغرب 385
اقتباس وتمييز 388
رابطة لا تتحول إلى طريقة 390
مع الأمراء 390
ظاهري يقول بإمامة المرأة 391
ذهول بالحق عن السوى 393
من القطبانية إلى الكفر 397
الفصل السابع عشر: الدعوة الغزالية 400
متابعة أهل الشرق 401
هل يتنكر متفلسف للعقل 402
صوفي يهاجم الباطنية 403
مسارعة إلى الانتساب 405
تلاميذ غزاليون 407
القاضي حلقة في سلسلات التصوف 410
انتساب تومرتي خادع 412
الإحياء يدعم الشرعية 414
ابن حمدين على رأس المناهضين 415
اعتراض الطرطوشي 417
ضعف في الحجج أو تشفع مرفوض 419
مآخذ كلامية 420
اللذات عقلية غير حسية 422
عمل القلوب 423
مهرجانات لإتلاف الكتب 425
فتاوي مضادة 425
نتيجة معاكسة 428
عناية مسترسلة 430
انتقاد ابن سبعين 431
الغزالي يتهافت وابن طفيل يتغزل 433
نفس غزالي في الفكر الغربي 435
خاتمة 438
الملاحق 457
رسالة أبي عبد الله بن الأبار السبتي 458
رسالة أبي مدين الغوث 461
مناجاة أبي العباس السبتي 462
معجم أعلام الصوفية الأندلسيين 464
معجم أعلام الصوفية المغاربة 467
رسوم الشبكات الصوفية وأسانيدها 479
الفهارس 493
فهرس المصادر 494
فهرس المراجع 502
فهرس المراجع الأجنبية 505
فهرس المواد 507